الجو العامـر بالزحـام وصخب النقـاشيين، أنساني خيبة أملي في العثـور عليه. فصرت أتنقل من دكان إلى آخر، أتفرج على المعروضات وأقف قليلا أمام هؤلاء الفنـانين الشعبيين أتـأمـل الغـزلان والأهلة والأسماك والطيـور والـزهـور التـي يرسمونها فـوق الصحاف، دون أن أنسى المهمة التي جئت مـن أجلها، وهي العثور على إنسـان أعرفه، يطرد مـن قلبي هذا الفـزع الذي أصابني وأنـا أجد نفسي غريبا في مدينتي. وانتبهت فجأة إلى أن الطـرقات التي كانت تملأ فضاء السوق، قـد بدأت تخفت تـدريجيا ولم أعرف سببا لـذلك، إلا عندمـا أجلت بصري بين أصحاب المطارق، فوجدتهم يمدون أعناقهم وأبصارهم باتجاه نقطة محددة في منتصف السوق، حيث تنتصـب قاعدة رخامية أقاموا فـوقها معرضا لمشغولاتهم، وأمـام تلك القاعدة، وقفـت امرأة تتفرج على المعروضـات، هي التي أثـارت اهتمامهم. أصابنـي ما أصابهم من ذهـول، فقد كانـت المرأة من ذلك النوع الذي لانلتقي به إلا نادرا في الحياة. قد نراه طيفا على الشاشة، وقد نرى صورتـه على أغلفة المجلات الملونة، أمـا أن نراه يخطر أمامنـا، كائنًا مفعما بالحيوية والحياة، يمشي ويتحرك ويقف بقربنا، فهذا ماكان يستحق أكثر من مجرد وقفة ذهـول، إنه يستحـق أن ينخرط الجميع في السجـود شكرا للـه الذي أبدع هـذا الجمال وأرسله إليهـم. كان أول سؤال خطـر علي ذهني، هـو، هل ينتمي هـذا الجمال إلى هذه البيئة؟ هـل هي حقا امـرأة ليبية؟ إنه مكـان يضج بالسائحين والسـائحات من زبائن الهدايـا التذكارية. ولكننـي أراهن على أنها امرأة ليبيـة؟ لن يخدعني هـذا الزي الذي ترتـديه والذي بـدا بأناقتـه وانسجام ألوانه، وجمال المسـاحات الفارغة التـي يتركها لإظهار مفاتـن الجسد في منطقة العنق والصدر والكتفين، وكـأنه ينتمي إلى أرقى بيوت الأزياء الفـرنسية، ولن يخدعني هذا الشعـر الناعم السواد الذي صنعـت منه تاجا، وزينتـه بمشابك الذهـب وتركـت سباسـب منه تسقـط فوق الجبين والخديـن، لتظهر التبـاين الجميل بين سواده ونقاء بشرتها فبدت وكـأنها أميرة جاءت من مدن الأساطير،